المحاضرة التاسعة

المتنبي

- ١ -

اول عهدي به — دراستنا في الماضي والحاضر

كتب التراجم

أرجع باخاطر الى الماضي ، وبيني وبين هذا الماضي سبع عشرة سنة ، وما هي هذه البرهة قياساً بالزمان الذي لا نهتدي الى اوائله ، ولا نتصل باواخره ، ماهو العمر كله سواء اطال هذا العمر أم قصر ، وسواء البسمت جنباته أم عبست ، ما هو عمر الانسان الى جنب أعمار العوالم في الطبيعة ، والى جنب أعمار طبقات الارض . ما لنا ولهذا التعجب فاننا اذا أمعنا في اشباه هذه المسائل غرقنا في خضم الزمان ، وتبين لنا اننا لم نك شيئاً في العالم ، أرجع باخاطر الى الماضي ، وقد كان الشباب مئيد الغصن ، أملد العود ، وكان البال هادئاً والفكر ساكناً لم يشغله شيء من شواغل الحياة وما اكثر شواغلها اللهم الا انصرافه الى الادب وتمتعه بآثاره الخالدة ولكن هل كنا نفهم هذه الآثار ؟ هل كانوا يفهموننا اياها ؟ هل كان يحسن فهمنا وتفهيمهم ؟ كنت ورفيق لي اذا اغتنمنا خفة من زحمة مدرستنا نتردد الى مكتبة مطمئنة مستقرة ليس فيها شيء من العظمة وانما عظمتها في حقارة شأنها كنا نثاب هذه المكتبة في حي رفيقي اي في حي النصارى فما كنا نجالس من الشعراء الا شيخنا ابا الطيب ولا كنا نحادث من الكتاب الا أستاذنا عبد الله بن المقفع .

اني لا أزال اذكر الابيات التي كنا نرددها ونستعظمها ونحن لا نعرف السر في عظمتها ، ومن هذه الابيات ، وهي كريمة علي ، لانها رفيقة الصبوة وشقيقة الروح :

وانا لنلقى الحادثات بانفس كثير الرزايا عندهن قليل

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي ومدير الكلية المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

ومنها : واحتمال الاذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الاجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

ومنها في استعطاف سيف الدولة :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم الم

ومنها في رثاء جدته :

اتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي فمت بها غما

حرام على قلبي السرور فانني اعد الذي ماتت به بعدها سما

نعم هذه طائفة من الشعر الذي كنا نتحدث به انا ورفيقي من دون ان نخوض في شيء من الكلام على بواطن هذا الشعر او نتصدى لكشف الغطاء عن اسراره وانما كان يسحرنا بظاهره فيشغلنا جمال هذا الظاهر عن النظر في جمال الباطن فكنا نجهل المتنبي ونجهل طبيعة عبقريته وانما كنا نتغنى بشعره حتى افترقنا فطرحتني النوى مطارحها واذا انا في شارع من شوارع الاسكندرية واذا انا في دكان وراق من الوراقين فأخذت عيني ديوان ابي الطيب الذي شرحه الشيخ اليازجي فاشتريت هذا الديوان وحفظت منه ما تيسر لي حفظه وقد ذهب المحفوظ الا اقله وانا لم ازدد معرفة بالمتنبي و بحقيقة حاله وشعره وانما ازددت عبادة له .

هذا اول عهدي بشيخنا ابي الطيب وما قدمت هذا الكلام عبثاً ، ولا رجعت الى الماضي عرضاً ، فلم اتعود ان اقلق غيري واضجره بكلامي على نفسي وانما المرء لا يكون امينا كل الامين الا اذا جرى على لسانه ما تصوره فكره هذا ما قاله اناتول فرانس ، لم اعرض الماضي عليكم عبثاً وانما اردت ان اصف لكم طوراً من اطوارنا في فهم الادب ، اردت ان اصور لكم كيف كانت دراستنا للادب من سبع عشرة سنة ، كنا لا ندري بشيء من جملة حياة الشاعر وجملة اخلاقه وطبائعه وجملة عبقريته ، حسبنا ان نستظهر بعض اشعاره ونروي هذا المستظهر في مجالسنا حتى يطبعنا الادب بطوابعه و يصبنا في قوالبه ، اما اليوم فلا يكفينا ان نملأ اذهاننا ببعض ابيات نجمجع بها في محافل الادب ، تلك حالة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد خلت ، ليس صاحبها في شيء من الادب ، قرأنا المتنبي فلم نعرف عنه كل شيء تهمنا معرفته ، لم نعرف اين ولد واين نشأ وكيف حصّل وقرأ ، وما هي اخباره من مبادئها الى خواتيمها ، كيف جال في الاقطار وكيف اتصل بسيف الدولة ثم انفصل عنه ، وكيف قصد كافوراً ثم تركه ، وكيف عاد الى بغداد ثم خرج منها ، وكيف رحل الى بلاد فارس ثم غادرها فقتل في طريقه الى وطنه الكوفة ، قرأنا المتنبي فلم نحط بشيء من سلسلة اخباره ، فلم يتبين لنا طراز حياة المتنبي وما قصدنا ان نعرف انه اتصل بفلان او فلان من الوزراء والامراء ، وانما اذا عرفنا جملة اخباره استخلصنا منها نمط حياته فتبين لنا ان هذه الحياة كانت جياشة بالحوادث والفتن فياضة بالقلق والاضطراب يكاد صاحبها لم يعرف الهدوء في يوم من ايامه ، ولم يذق الطمأنينة في ساعة من ساعاته ، اعصاب هائجة مائجة اذا حركوا منها طرفاً انتفضت ولا انتفاض البرق فويل للذي مسها بسوء .

هكذا قرأنا المتنبي ، اما اليوم فاني احاول ان ادرسه واياكم على صورة اتم ، ووجه اكمل ، احاول اليوم ان اقرأ كل ما اهتدي اليه مما يتعلق بحياة المتنبي ، احاول ان اقرأ شعره وان ادون في دفتري ما توحيه اليّ هذه القراءة ، وان احدثكم في كل اسبوع بما بقي في نفسي من آثارها على مختلف صفات هذه الآثار ، وعلى ما به لا بد انا من ان ننتقل الى وطن شيخنا ابي الطيب ونراقبه في اطوار حياته بمجامعها ونصحبه في اسفاره كلها ، في جولانه في الشام وفي اتصاله بسيف الدولة ، وفي دخوله مصر وخروجه منها ، وفي رجوعه الى العراق وفي شخوصه من العراق الى فارس وفي مغادرته بلاد فارس وعودته الى وطنه وفي مقتله على طريقه الى الكوفة ، لا بد لنا من ان نصحب شيخنا ابا الطيب من مبدإ منشأه الى خاتمة حياته وان نعنى بجميع ما حدث له من الحوادث في مجالسه كلها وما اكثر هذه الحوادث ، وان نستنبط منها طراز حياته وما ملئت به هذه الحياة من قلق واضطراب ، وما انقلبت فيه من علو وهبوط لا بد لنا بعد الوقوف على دقائق هذه الحياة من معرفة مزاجه وخلقه مستندين في هذه المعرفة الى آثار عبقريته نفسها لا بد لنا من النظر في آثار عصره في شعره وآثار شعره في عصره ، ما الذي اوحاه اليه عصره وما الذي اوحاه الى عصره لا بد لنا من النظر في عبقريته وفي خصائصها راجعين في الاحاطة بهذه الخصائص الى مصادر شعره

١٨ . ١٠ مجلة المجمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجملة القول : لا بد لنا من ان نعيش مع المتنبي حتى نعرف من هو المتنبي ، وقد يجوز أن يعرض لي في اثناء هذا كله فكر عام يجره فكر خاص ، لان المرء اذا تصور موضوعاً وهيأ له عناصره ثم اخذ قلمه ليكتب هجم على ذهنه شيء ما كان يتصوره ، كان قلم ابن المقفع كثيراً ما يقف فقيل له في ذلك فقال تزدحم الافكار في صدري فيقف القلم لتحيره .

اول ما يهمنا عمله الاحاطة بحياة المتنبي من اولها الى آخرها ، والوقوف على اخباره وحوادثه من دون ان تكون هذه الاخبار مقتضبة مبعثرة فاذا وقع الاقتضاب في الاخبار فاتتنا صورة صاحبها المتكامله ، فاذا كنا نبحث عن حياة المتنبي وتعرضنا في خلال بحثنا للكلام على شعره من دون ان يكون لهذا الكلام ارتباط بحياة صاحبه شاهت صورة هذه الحياة وقبحت فالاجدر بنا ان نرسل اخبار الحياة دفعة واحدة ، وقد عني الافرنجة بهذا النمط من الترتيب العناية كلها ، اذكر اني قرأت كتاباً عمله « اناتول فرانس » سماه العبقرية اللاتينية ، وصف فيه طائفة من كبار شعراء فرانسة وكتابها من جملة هؤلاء الشعراء (راسين) وكاد راسين يكون اكبر شعراء فرانسة عقد له اناتول فصلاً في كتابه يشتمل على خمس وثلاثين صفحة لم يذكر فيها الا حياة راسين من صدورها الى اعجازها وقليلاً ما كان يتعرض للكلام على عبقريته في تضاعيف كلامه على حياته الا ما اقتضاه المقام ، من هذا يتبين لكم مبلغ اخبار الكاتب او الشاعر في الادب الحديث لان لهذه الاخبار تعلقاً بروح الشاعر و باخلاقه وبطبائعه وبعبقريته نفسها .

رجعت الى المصادر التي استطيع ان اهتدي بها الى معرفة حياة المتنبي من جملة هذه المصادر : ابن خلكان ، طبقات الادباء ، يتيمة الدهر ، الصبح المنبي . تصفحت كتاب ابن خلكان فبدلاً من ان يبدأ بالكلام على مولد المتنبي ثم على اهله ثم على تحصيله ثم على اخباره ثم على شعره ، بدأ بالكلام على تحصيله ثم انتقل الى الكلام على شعره ونثره ثم ذكر نظر الناس فيه ثم رجع الى اخباره ثم بيّن مولده ثم ذكر نسبه حتى ركب البحث بعضه بعضاً دون شيء من الترتيب وكذلك صاحب الصبح المنبي فانه عوضاً عن ان يروي لنا اخبار المتنبي دفعة واحدة رواها على صورة مفرقة مبددة وانه ليروي لنا اخبار المتنبي عند سيف الدولة اذ ينقلب بنا فجأة الى اخباره عند ابن العميد ، بحيث قضيت ثلاث ساعات ونصف ساعة في التدقيق والتمحيص حتى اجمع اخبار ابي الطيب كلها ، واصل بعضها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ببعض من بدء حياته الى يوم مقتله ، فلو ذكر صاحب الصبح المنبي الاخبار دفعة واحدة من دون ان يتخللها شيء من نقد الشعر او غيره مما لا محل له في فصل الاخبار لكفى القارئ كثيراً من العناء . ادبنا في القديم لا يزال فوضى ينقصه كثير من الترتيب ، وهذه حقيقة واضحة حتى ان هذه الفوضى قد حملت بعض الناس على ان يعتقدوا اننا لا ادب لنا في القديم ، او ان هذا الادب لا قيمة له . وما اعتقدوا هذا الاعتقاد الا لقلة الترتيب في ادبنا فلو روى المؤلفون اخبار شاعر من الشعراء على حدة حتى نستخلص من هذه الاخبار طراز حياته باجمعه . ولو نقدوا شعر هذا الشاعر على حدة حتى نستنبط من هذا النقد رأيهم في الشعر دون ان يتخلل الاخبار شيء من النقد . او ان يتخلل النقد شيء من الاخبار مما لا يتعلق بالنقد . لو فعل المؤلفون هذا كله لكان ادبنا في شكل اتم ، فاذا لنا ادبنا في القديم فوضى فما في مقالنا شيء من المبالغة . وما اظن ان ادبنا في الحديث فحسن ترتيباً . ومن المؤلم ان يدعو استاذ روسي في المجمع العلمي في لنينغرد وهو الاستاذ اغناطيوس كراتشقوفسكي ادباء العرب الى تنظيم ادبهم في هذا العصر قبل ان يفكر احد امن هؤلاء الادباء في التنظيم ، فقد كتب هذا الاستاذ مقالة بالعربية سماها : درس الاداب العربية الحديثة — مناهجه ومقاصده في الحاضر — نظر واقتراح — وارسل مقالته الى مجلة المجمع العلمي في دمشق ، وستظهر هذه المقالة قريباً في مجلة المجمع . وقد قرأتها كلها فان صاحبها دلنا على ما يجب علينا ان ننهجه من المناهج في ترتيب ادبنا الحديث واقترح ان يكون دخول نابوليون مصر فاتحة عصر هذا الادب .

دمشق : في ١١ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net